الفصل الرابع والأربعون
وسطاء الوفاق

كان من بين زوار أحمد من يسعون جاهدين لإزالة الخـلاف بـين أحمـد وبـين الحزب.. ومن بينهم من يزيدون النار تسعرا فيتقولون عنه بما لم يقله مما يزيده غـضبا وتحديا.. وكان فؤاد راجي من الذين تمكنت صلته به من عهد قريب فما كان ليعرفه من قبل معرفة وثيقة .. ولقد جاء ذات يوم بعد إطلاق سراحه لزيارته.. وكان برفقتـه أمـه وزوجته.. وكانت هي تلك الفتاة النحيلة السمراء خولة التي بقيـت آخـر المعـتقلات.. تعرفت اليها الأم في احدى الإجتماعات واختارتها زوجة لابنها وهو في السجن..

لم تكن مها بعد قد انتقلت من بيت العمة راضية، اذ أن أحمد قد أمهـل المـستأجر شهرا حتى يجد له سكنا غير بيته..

كان لتلك المجموعة الكثير من الأحاديث والذكريات التي تجمـع بيـنهم.. وتتخـذ زيارتهم جوا عائليا لا كلفة فيه .. فالعمة راضية ترتاح للأم، ومها ترتاح لخولة وأحمـد يرتاح لفؤاد.. وكان فؤاد هو واسطة العقد بين أحمد وبين اللجنـة المركزيـة للحـزب.. وأحبه لشخصيته المستقيمة، وشجاعته في إبداء الرأي وذكائه الحاد.. وكان فؤاد في وضع مادي سيئ اذ لم تكن له خدمة محسوسة في الجيش قبل تسريحه في عهد عبد الناصـر، وكان من جملة المائتي ضابط فلسطيني الذين أعطى المقدم حميد أسماءهم لعبـد الحكـيم عامر فسرحهم من الجيش.. فانتمى الى الحزب ووجد عملا له كمترجم مـن الإنجليزيـة الى العربية في وكالة صحفية إشتراكية.. كان غاضبا مـن الأسـلوب الـذي لا يتـسم بالديموقراطية الذي ارتفع به أناس الى اللجنة المركزية بالرغم من نذر كثيرة تنبئ بعـدم أهليتهم لتولي هذا المنصب الحساس.. حتى كشف أحدهم القناع عن وجهه وأودى بأفضل المناضلين وأغزرهم ثقافة وأرفعهم خلقا الى الهلاك! قال أحمد:

-الديموقراطية ثمينة.. لو كان هناك ديموقراطية لما جرى ما جرى!

-من يستطيع أن يتحدث عن الديموقراطية؟ هز فؤاد رأسه أسفا..

-ان رفضنا الديموقراطية فلن تكون حصيلتنا الاّ بلوغ المنافقين مراكز القوة، فهـم من ضآلة الشخصية بحيث يستطيعون المرور من الخلايا الضيقة ليكونوا للقادة كـورس نفاق طيع..

-كل القيادات الفردية لا تختار الاّ هذه النوعيات من الناس الذين يزحفـون علـى بطونهم..

كان فؤاد يملك في جوانب شخصيته ذلك الإنفعال الذي دفعه ذات يم ليمزق صورة الرئيس أمام جمع من أصدقائه الضباط، وليعاني ما عاناه من سجن نتيجة لذلك..

أثار في الحزب موضوع الديموقراطية ففصل على التو، وقطعت الوكالة الـصحفية ما كانت تعوضه به لقاء الترجمة فساءت حاله.. ثم سعى أحد أصدقائه بينه وبين الحزب على أن يكتب نقد ذاتيا ويتراجع فيه عن موقفه.. وتركت تلك الحادثة لـصديق مخلـص أثرها في نفس أحمد.. كان يشعر أنه يكاد أن يتميز غيظا:

-تكسي! تكسي تركبونه وعند مفترق الطريق تتخلون عنه! ويل لهذا الشعار الـذي ترفعونه، خال من الإنسانية.. ان من يحمل مبادئ الماركسية حقا يبلغ كمـال الإنـسانية والأخلاق، ولكنكم أبدلتم الماركسية بالمكيافيلية، والمبدأ بالتكتيك، والثورة بالمكائد..

الى أين يذهب الإنسان الشريف الهارب منكم؟ ألأحضان الإستعمار، أللإنتهازية، أم يعيش مكتوف اليدين تحرق ثورته فعاليته، أم يموت وهو حي بلا مبالاة محزنة؟ تبا لهذا التيار الذي يقودكم!

الدكتاتورية! لو كانت الجنة تحت أقدامها لكانت الجنة نارا للإنسان الحر الشريف.. رجل واحد قد يكون أحمق، وقد يكون مجنونا، وقد يكون خائنا، وقد يكون وحـشا، وقـد يكون كل ذلك معا، يضع قانونا هو الصواب وهو الفضيلة وكل ما عداه خطـأ ورذيلـة! كيف يعقل هذا، كيف؟

لا يركب التطور الإنساني مثل هذا الحمار الأعرج ونحن في عصر مراكب الفضاء أبدا ، أبدا، وأنا مقتنع بذلك!

وبلغت ثورته غايتها حين ذهب خروشوف بنفسه ليضع وسام لينين على صدر عبد الناصر، ويدعوه بطلا إشتراكيا! كان هذا أقصى احتماله:

-هل تسمعين يا أم عزيز؟ أصبح بطلا إشتراكيا! ونحن ماذا كنا؟ ونحن فيم نضالنا، ونحن فيم سجنا وعذبنا؟ إذن نحن الذين على خطأ، نحن الذين يعيقـون تقـدم الـشعب.. أصبح بطلا ورفع جماعتنا على رأسه إكليل الغار والبطولة، وأحرقونـا بخـورا علـى

قدميه.. لعقوا دماء الرفاق التي سالت، وتمتمت شفاههم للجلاد أهازيج الثنـاء.. انتهـى الأمر يا أم عزيز وأسلموا صليبهم لمهرجي الإشتراكية، وإشتراكية المباحث!

وزادت الأمور سوءا حين رفع الحزب شعار "مقياس وطنية الإنـسان هـو ولاؤه للسوفييت"!

-ماذا دهاكم؟ اختلطت أمامكم موازين تقييم الأمور.. انكم تبلبلون عقـول النـاس، وبغباء تلقون بالمخلصين في الرغام.. ما نحن حتى نستحق أن نذوب بالأسـيد، اذا كـان مضطهدونا أبطالا؟ ألا تخجلون من هذا القول أمام أيتام مناضل لا يعرفون لوالدهم قبرا؟ ألا تخجلون من هذا القول أمام أم عرفت عذاب المخاض وتربية الولد في كل شبر نـدر حتى شب فألقوه على بابها وقد احترقت جمجمته؟ ألا تخجلون من زوجة لا تجرؤ حتـى اليوم أن تشير الى قتلة زوجها الذين غدوا أبطالا؟ تعرفون أكثر مني الطعنـات الـنجلاء التي أصابتنا في الصميم، وأخطرها تلك التي تركت الكثيرين يسيرون على الأرض جثثا دون روح يأسا وخيبة، وتسمون من وجهوا تلك الطعنات أبطالا؟ أم أنكم تخليتم عن كـل شيء، أم يئستم من كل شيء، أم تشحذون الهمم للسباق اللاإنساني متحسرين علـى مـا فاتكم؟

-ماذا كنت تريدنا أن نفعل يا أبو عزيز؟ نحن أضعف ما نكون اليوم..

-على الأقل كونوا شرفاء مع أنفسكم، ولا تسمحوا بتسمية من سحقوا أشرف من في هذه الأمة أبطالا.. المخلصون يلتقون ولو اختلفت آراؤهم، ويتضافرون في الأزمات، ولا ينشقّ بعضهم عن بعض.. فإما أن نكون نحن المخلصين أم هم، نحن الأبطال أم هم، نحن من نمثل إرادة التقدم والخلاص من التخلف أم هم، نحن الذين نصهر الأقليات الطائفيـة والقومية أم هم، من المخلص لأمته ومصالحها، ومن التابع لأعداء أمته؟ من التقدمي ومن الرجعي؟ من البطل ومن الوغد؟

-يا أبو عزيز ليس الأمر جامدا هكذا، لقد تغيروا..

-هم تغيروا أم أنتم تغيرتم؟

-سيدي، هناك قرارات إشتراكية، وإصلاح زراعي..

-واجهة!

-حتى لو كانت واجهة، فلا بد أن تتحول الى مضامين حقيقية.. الشعب سيطالبهم بها وسيجدون أنفسهم مسوقين لتحقيقها..

-كان هذا ممكنا لو أنها على الأقل بيروقراطية وطنية وليست تابعة..

-انها طريق سفلي للإشتراكية..

-بل هي نوع آخر خاص بالبلد المتخلف.. انها ظاهرة جديدة لاتؤدي الى الإشتراكية، وليست طريقا سفليا للإشتراكية..

-الفكر الإشتراكي لم يعرف هذا النوع..

-لأنه ظاهرة جديدة يحدث في بلد تابع للرأسمالية المتطورة، انه وجهها السلبي في النظام العالمي.. يحدث التأميم للمصانع الناشئة في سوريا لفتح الأسواق للسلع الأجنبية.. ويحدث الإصلاح الزراعي لصالح الطبقة الجديدة، بيروقراطيي مصر وسوريا، الطبقة المثقفة والعسكريين من البرجوازية الصغيرة.. في مصر كانت هناك برجوازية تابعة للإستعمار القديم حلت مكانها بيروقراطية تابعة للإستعمار الحديث.. جرى الإنقلاب لصالح البرجوازية الصغيرة.. وليس لصالح المنتجين من عمال وفلاحين.. هذا هو الذي تسمونه طريقا لا رأسماليا لا يؤدي الى الإشتراكية.. التبعية بقيت، ورأس المال الإستعماري بقي في مشروعات الدولة..

-أليس الوضع الجديد تقدما؟ أليس الإستعمار الحديث بحد ذاته تقدما على القديم؟

-هل بتّم تعتبرون الإستعمار الحديث تقدما؟ يا لله كم تطورت مفاهيمكم لتصلوا الى هذه النتائج!

-ألم يكن ما جرى ثورة؟

-أية ثورة؟ تحسبون الإمبريالية تبني استراتيجيتها على كل بلد من الوطن العربي على حدة؟ إحتلال مباشر في جزء من الأرض العربية، وتبعية اقتصادية في آخر وعسكرية عميلة لها في أجزاء أخرى، واحتكار بترولي في كل الأماكن الذي يتواجد فيها.. ثروات البلاد العربية ليست ملك أهلها، بل هي ملك الإحتكارات الكبرى في الولايات المتحدة، وتسمون ما يجري ثورة؟ ثورة على من؟ على إقطاع مهترئ كان يلفظ أنفاسه دون ثورة!.. كل ما ترونه من مآس في الوطن العربي هو بسبب انتمائه الى الإستعمار الحديث!.. انه أشرس من كل استعمار عرفته الأمة العربية!

-أنت تبالغ يا أبو عزيز!

-انه يبدل خدمه.. يثور الناس على الرجعية فيأتيهم بالدكتاتورية، ويثـورون علـى الدكتاتورية فيأتيهم بالإنتهازية، ويثورون على كل هؤلاء فيأتيهم بكلب حراسة لمصالحه.. اسرائيل تهزمهم في المعارك التي لم يستعدوا لها لشغلهم بمصالحهم، وهو آمـن لنهبـه يحمي كل الأطراف المخترقة بعملائه..

-نحن لا نرى رأيك يا أبو عزيز!

وهب أحمد واقفا منفعلا وبيده صحن خزفي كان قد امتلأ بقشور الفاكهـة ورمـاه بعنف على الأرض فتناثرت شظاياه في كل مكان.. وأسرعت مها من المطبخ حيث كانت تعد القهوة لتعرف ما حدث..

-كل من لا يرى هذا الواقع سيتحطم كما تحطم هذا الصحن!..

كان الضيوف واجمين والجو مشحونا متأزما والتفت أحدهم الى مها وهو يقف على قدميه يريد الإنصراف:

-أرى أن زوجك يرفع راية جديدة!

وصمتت مها وهي تلملم قطع الصحن المحطّمة واستعد وسطاء الوفاق للإنـصراف بخيبة الأمل وهم يدوسون على النثارات.. وأردف أحمد:

-وأنتم أيضا قد بلغتم سطح الجسم وطال بقاؤكم، ولا بد لكم أن تتقـشروا تـاركين مكانكم للجلد الجديد الذي ينمو بالرغم عنكم!

وما أن خرج آخر ضيف حتى قالت مها لزوجها:

-وأنا أرى يا أحمد أنك ترفع راية جديدة .. سمعتك يوما بعد يوم، ولست أشـك أن رؤياك هي الرؤيا السليمة للواقع.. وأنها هي التي تنتصر..

وتخضلت عيناها بالدمع وأردفت: سأحتفظ بهذه القطـع للـذكرى.. أرى أن عهـدا جديدا يبدأ.. ليس من إنسان واع لا يتململ، ليس من إنـسان لا يريـد أن يـنفض عنـه عبوديته.. نحن جيل الرفض، أترانا نصبح أيضا جيل التحرير؟

* * *

عملي مقدس

كانت مها تتململ وهي ترى أحمد في غاية السرور وهو يراها مغمورة بالأعمـال المنزلية وبحاجات ولديها، فإذا ما جلست لأوراقها تجهم وجهه، وتعكر مزاجه، واشـتعل بينهما الخصام.. ذات يوم قالت له:

-ما عدت أبالي.. ان عملي مقدس بالنسبة الي كما هو عملك بالنسبة اليك، لن أتخلى عنه، ولو أنني لا أجد وسيلة للنشر.. لاتظن أنني صمت في الماضي لأنني كنت أعتقـد أنك على حق، ولكن لأنه لم يكن بيدي حيلة..

-وهل أصبحت لديك الآن حيلة؟ سأل ساخرا:

-كنت تخيرني ووالداي صغيران، أخشى أن يشوه أحد صورتي في ذهنيهما.. أمـا الآن فان عزيز كبر وهو يفهم ما يجري..

-تتخلين اذن عنه من أجل أن تكتبي الروايات!

-أحمد أنا لست أتاجر بكلمتي حتى تحتقر أدبي.. أنك تدرك أن ما أطالب به حـق مشروع..

-اذا كان هذا البيت لا يوفر لك السعادة فابحثي عن سعادتك حيث تشائين..

-جميل أن تقول لي هذا الكلام بعد كل هذه السنين! لو أنفقت الزمن الذي أنفقته على خدمة بيتك وتربية ولديك في رعاية نفسي لكنت أحمل دكتوراه، ولكنت نشرت رواية كل عام وكنت شهيرة وثرية.. أنا التي دفعت الثمن الغالي في الزواج.. لا تقـدر تـضحياتي وأنا أقوم بالأعمال التافهة والتوفيرية على حساب أدبي.. وتهددني بعدها أن أبحث عـن سعادتي حيث أشاء! أي مكان أريده غير هذا البيت؟

-أنا لم أظلمك، ولم أقل لك يوما أنني أتخلى عنك..

-تتخلى عني حين تتخلى عن أدبي.. لا أحتمل هذا الصراع الدائم بين حبـي لـك وحبي لأدبي!

-ان كنت تظنين في نفسك كل هذا الإبداع فلماذا تزوجت؟ كان مـن الأفـضل أن تكوني صادقة مع نفسك ولا تتزوجي!

-كنت أظن نفسي أتزوج رجلا يؤمن بي وبأدبي، وأنني لن أكـون معـه مجـرد زوجة..

-أنا بحاجة الى زوجة، والى أم لأبنائي!

-رفضت قبلك من كانوا يريدون أن يحدوني بهذا الإطار، ولكنك لا تختلف عنهم..

-للمرة الثانية أقول لك أنني لم أظلمك، ولم يكن قدري بأفضل من قدرك..

-لاأستطيع يا أحمد أن أعيش في الظلام طول حياتي..

-ان كنت طموحة من أجل الشهرة والثراء فما كان لك أن تربطي مصيرك بي..

-لست طموحة من أجل هذا..

-أنت قلت ذلك.. ولا أتقوله عنك..

-يقول الإنسان في لحظات الغضب أشياء لا يعنيها، كنت أرى نفسي غارقـة فـي الأعمال التافهة التي كان يجدر أن يقوم بها غيري، فأجد وقتا لأتفرغ لأدبي!

-كان يجب أن تعلمي بأنك ستُحاربين كما أحارب.. حذرتك ولـم أظلمـك.. فـي النضال يسقط الكثيرون صرعى.. فان وجدت هذا الطريق شاقا عليك فاتركيه.. واملئـي الصفحات بكل التفاهات التي لا تمس قضايانا الشائكة واشتهري واثري!

-ألا تزال تأخذني بهذه الكلمة؟

-أريد أن تفهمي بأن النضال لا يجتمع مع الشهرة والثراء، فان كنت تختارين حقـا الطريق الأول فستحاربين كما أحارب، وليس لك الاّ الصدق والصبر..

ما عليك يا مها الاّ الصدق والصبر!.. انه قادر على إقناعك كيف كانت ثورتـك.. ولكنك تختنقين.. الكلمة التي لا ترى النور تختنق في صدر صـاحبها، والحيـاة تـسير والظروف تتبدل، فتصبح كالثوب من زي قديم.. هل قدر على كلمتك أن تصبح تاريخـا وليست سلاحا في النضال؟

ولكن صبرها لم يكن ليطول.. الزمن الذي يسير بطيئا يدفع الى اليـأس.. انهـا لا ترى شعاع النور.. ولا تلبث أن ترى أحمد بمنظار آخر وتتهمه هو دون غيره ويبدو لها أنه لا يريد منها الاّ ما أعرب عنه بركليس في وصفه للمرأة الممتازة "أن لا يذكرها أحد بخير أو شر" مجرد أنثى داخل البيت..

لا يريد أن يكسب شيئا بها، ولا يرغب أن يخسر شيئا بسببها..

ولعل مثل تلك المرأة هي أفضل ما يناسبه..

لماذا تزوجها اذن؟

هل كان في جهل من أمرها؟ هل خدعته وطوت عنه حقيقة ذاتها؟

ولكن لماذا تكون مصالحهما متباينة؟ هل هناك عداء خفي بين المناضل والأديب؟

هل أحدهما ينتمي الى عالم والآخر الى عالم ثان؟

ألا يستطيع المناضل أن يحتوي الأديب؟ لماذا يقلل من شأنه ودوره في النضال؟ ان أحمد لا يجد أبدا من وقته فراغا ليقرأ أوراقها، انه يتعمد تجاهلها، ويرمق جهادها لتخرج من الشرنقة بنظرة عدائية.. لا يريد لها أن تصبح فراشة وينبت لها جناحان تطير بهما..

أتراه تستبد به الغيرة عليها، ويخشى أن يطل عليه من أدبها حب قديم يعذبه التفكير فيه، وينغص عليه عيشه؟

هي لم تحب أحدا سواه ذلك الحب الذي يحتوي الجسد والروح، فلم يتملكه الخـوف من فقدها؟ لماذا لا يدرك أنها في غيابه فقدت الأمان وفقدت معه الرغبة في الإعتماد على أحد غير نفسها، فكانت تبحث عن عمل لا حبا بالعمل ذاته، ولكن لتكون مستقلة اقتصاديا فلا يشعر بالقلق عليها ويزيد عذابه..

لم يكن ليستطيع أن يجد لها مكانا الاّ في جو التدريس، فما دام قد حيل بينها وبـين هذا العمل، فالأحرى بها أن تخلد الى البيت..

انها تحبه ولا طاقة لها على بعاده وبعاد طفليها.. فليس في الحياة ما هو جدير بهذه التضحية..

وهي تدرك أنها لو غامرت يوما وتركت بيتها فهي تتركه الى الأبد! فأحمـد لـيس بالرجل السهل، وليس بالرجل الغفور..

كم أشقاها ذلك الحلم الذي غافلها وجسد لها رغبة الهرب.. ترى أنها كانـت بعيـدة عنه.. أين؟ ليست تدري، وأنها تعود من البعيد فيشيح بوجهه عنها، وتسأله عـن ولـديها فيقول لها "عزيز مات.. مرض ومات.. وهمام؟ ويهزّ رأسه دون كلام.. وتهـزه "كيـف ماذا حدث له" "سقط عن السطوح ومات"..

كان صدرها ينهنه في حلمها، وتصدر عنها صيحات مخنوقة ونحيـب.. وسـمعت صوتا يهتف بها بين الحلم واليقظة..

-مها أفيقي، ما بك؟

وفتحت عينيها، ولكنها قبل صحوها التام شاهدت عينيه في الحلـم تطـيلان اليهـا النظر، عينين لائمتين لا تغفران، تحملانها تبعة ماجرى نتيجة التخلي!

حمدت الله أن ذلك حلما، شدت عليه الوثاق فعانقها وقربها من صـدره، وأحـست وهي تلقي برأسها على ذراعه أن سعادتها في أن تكون قربه وقرب ولديها.. الكل بحاجة اليها، بتلك المطالب الصغيرة التي أرضخت المرأة للعائلة ألوف السنين، فـي أن تكـون سلّما يشب عليه الأبناء ويرتفع الزوج باطمئنان، محققا وجوده وأبوتـه، متفـاعلا مـع الحياة.. أما أن يكون وجودها هدفا بحد ذاته، فهذا مالا حاجة لأحد به..

ظلم، والله ظلم، ولكن من المسؤول عن هذا الظلم؟

انها في عصر يتساءل ويتململ ويثور..

وهي جزء من هذا التساؤل والتململ والثورة..

أبدا لن ترضى فيه المرأة أن تكون مجرد امرأة!

عبث الرجل ما شاء له العبث في هذا الوجود..

استعبد وقتل وأثار الحروب وهدر البشر والحضارات..

كان تاريخه مخجلا، لأنه عزل المرأة!

وهي ترفض العزلة!

وترفض أن تكون مجرد زوجة لا تشارك في قراراته، ولو كانت زوجة نبي!

* * *